مفهوم "اللغة" بين سوسير وتشومسكي

د. محمد محمود الأمين

بحث مقدم للمؤتمر الدولي الثالث للغة العربية تحت عنوان
" الاستثمار في اللغة العربية ومستقبلها الوطني والعربي والدولي" - دبي 7-10 مايو 2014

مقدمة:

أهمية موضوع البحث – منهجه – مكوناته:

1 – أهمية موضوع البحث:

يكتسي موضوع **"مفهوم اللغة بين سوسير وتشومسكي"** - (سوسير هو: فردينان دي سوسير ، عالم لغة سويسري، ت 1913 م ، راجع في ترجمته كتاب : فردينان دي سوسير : تأصيل علم اللغة الحديث وعلم العلامات، جوناثان كيللر : ترجمة محمد حمدي عبد الغني ، ص 23 وما بعدها، وتشومسكي هو: ناعوم تشومسكي عالم لغة أمريكي معاصر ، راجع في ترجمته كتاب : تشومسكي فكره اللغوي وآراء النقاد فيه: د. صبري إبراهيم السيد، ص 45) - أهميةً بالغة لاعتبارات عدة، أهمها أربعة:

أ- أنه يعنى بدراسة (**مفهوم**) . ولا تخفى أهمية دراسة المفاهيم؛ إذ هي من كل علم بمنزلة اللب من القشرة (انظر مصطلحات النقد العربي لدى الشعراء الجاهليين والإسلاميين .. قضايا ونماذج، د. الشاهد البوشيخي، ص 7).

ب – أنه يتناول (**اللغة**). ولا يجادل أحد في أهمية اللغة، ومن ثم في أهمية دراستها (المسار الجديد في علم اللغة العام، د.وليد محمد مراد، ص50) حتى زعم بعض الدارسين أن "دراسة اللغة تعني دراسة الإنسان" (التفكير اللغوي بين القديم والجديد، د. كمال بشر، ص 19).

ج – أنه يرتبط **بعالِمين** يمثلان قطبي الدراسة اللغوية الحديثة هما فردينان دي سوسير مؤسس البنيوية وناعوم تشومسكي رائد المدرسة التوليدية – التحويلية في الدرس اللساني المعاصر.

د – أنه يتسم بالجدة . فلا يعلم الباحث – لحد الساعة – بحثا أكاديميا أو غير أكاديمي بعنوان كهذا . أضف إلى ذلك أن منهجه ذو طبيعة تركيبية كما سيتضح بعد قليل .

2 – منهج البحث:

المنهج المتبع في البحث هو المنهج التكاملي الذي يوظف معطيات الوصف والمقارنة، ويتبنى الاستدلال والتعليل والنقد والترجيح ..... إلخ ، على امتداد مكونات البحث.

3 – مكونات البحث:

يتكون البحث من مقدمة – هي التي بين يديك – وتمهيد وثلاثة أقسام وخاتمة، على نحو ما توضحه الخطاطة البحثية الآتية :

* مقدمة
* تمهيد
* القسم الأول : المفهوم السوسري للغة.
* القسم الثاني : المفهوم التشومسكي للغة.
* القسم الثالث: أوجه الاتفاق والاختلاف بين الرجلين.

* خاتمة.

وكل عنصر من عناصر تلك الخطة يتضمن نقاطا وفروعا جزئية، حاول الباحث أن تتسم بطابع التماسك والانسجام.

تمهيد

يرى سابير "أن اللغة هي التي تجعل مجتمعا ما يتصرف ويفكر بالطريقة التي يتصرف ويفكر بها، وأن ذلك المجتمع لا يستطيع رؤية العالم إلا من خلال لغته" (المسار الجديد، ص 49).

وإذا كانت اللغة على هذه الدرجة من الأهمية .. فما هي بالضبط؟.

لقد أصبحت كلمة (**لغة**) تطلق في الصحف والمجلات غير العلمية، وعلى ألسنة الناس، على وسائل كثيرة للاتصال " فنحن نسمع بلغة النمل ولغة النحل ... ولغة الكمبيوتر وحتى لغة العيون" (أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، د. نايف خرما ، ص 137).

قديمًا عرّف ابن جني اللغة بأنها " أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"(الخصائص ، ابن جني ، ج1 / ص 33. وهي من الناحية المعجمية اسم ناقص وأصلها لُغْوَةٌ .. من لغا إذا تكلم. راجع لسان العرب مادة (لغو))، وهو تعريف جيد إذا وضعنا في الاعتبار عامل الزمن.

و حديثًا وصف المختصون اللغة بأنها "لغز كبير حار العلماء في حله"(المسار الجديد، ص 50)؛ ذلك أنها "نظام معقد؛ بل هي نظام الأنظمة المعرفية" (قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، د.مازن الوعر، ص 15). وبالرغم من ذلك فإنهم لاحقوها بالنعوت والتعريفات ناظرين إليها من زوايا عدة، مبينين ماهيتها ووظيفتها وصلتها بالواقع و الفكر والتاريخ (انظر على سبيل المثال : اللسانيات واللغة العربية ، د. عبد القادر الفاسي الفهري، ج1/ ص41 ، واللسانيات وأسسها المعرفية، د. عبد السلام المسدِّي، ص 25، 87 ، 88)... على ما سنبين بعضه في السطور اللاحقة .

القسم الأول : المفهوم السوسري للغة:

1 – مسوغ الاهتمام بتحديد اللغة:

يرجع سوسير اهتمامه باللغة – من حيث تعريفها وإبراز خصائصها – إلى ضرورة منهجية تتمثل في حتمية تحديد موضوع العلم الذي هو بصدد التأليف فيه والتنظير له أعني علم الألسنية (يرادف هذا المصطلح مصطلحات من قبيل علم اللغة الحديث ، اللغويات ، اللسانيات ..... على أن ندوة اللسانيات المنعقدة بتونس سنة 1978م أوصت باستخدام مصطلح "اللسانيات" فقط اسما لهذا العلم ، وإنما استخدمنا هنا مصطلح الألسنية بدلا من اللسانيات مجاراة لمترجمي كتاب سوسير (دروس في الألسنية العامة) بوصفه أحد أهم مصادر هذا البحث) فيتساءل في البداية "ما هو موضوع الألسنية "؟ (دروس في الألسنية العامة، فردينان دي سوسير ، ص 26) أي مادة هذا العلم التي يجب أن يشتغل بها الألسني ويعالجها ، معتبرا أن الموضوع على درجة عالية من الصعوبة والعسر.

ويقارن سوسير في هذا الشأن بين الألسني وغيره من العلماء موضحا أن "أصحاب العلوم الأخرى يباشرون أشياء معطاة سلفا. يمكنهم أن يفحصوها من زوايا مختلفة . أما في مجالنا – نحن معشر الألسنيين – فلا شيء من هذا القبيل" (نفسه).

ومرد ذلك – من وجهة نظر سوسير– أن الظاهرة اللغوية؛ أو بعبارة أخرى: الكلام (langage)؛ يضم أشياء متعددة الأشكال متباينة المقومات موزعة على ميادين متعددة ... كالفيزيائي والفسيولوجي والنفسي، ومن هنا فهو غير خاضع للدراسة العلمية التي تطمح إليها وتنشدها الألسنية (نشير هنا إلى أن الدراسة الألسنية في الجامعات الغربية أصبحت في كثير من حالاتها وثيقة الصلة بالمختبرات). وللخروج من هذا المأزق يقترح سوسير التفريق في الظاهرة اللغوية بين عدة مصطلحات هي **اللغة و الكلام واللفظ والملكة** ..... على أن تكون الأولى، والأولى فقط هي موضوع الألسنية. وقد اقتضى منه هذا تعريف اللغة وبيان علاقتها بكل من الملكة والكلام واللفظ. وهو ما سنتناوله في النقطة الثالثة . بيد أن السؤال الجدير بالإثارة هنا هو أليس في الاهتمام البشري باللغة منذ قديم الزمان ما يضمن تصورا دقيقا للغة وتمييزا واضحا بينها وبين ما يدانيها في الحقل الدلالي كالكلام مثلا ؟

إن ذلك هو موضوع الفقرة اللاحقة.

2 – نقد التصور القديم لمفهوم اللغة.

قرر سوسير أنه بالرغم من اهتمام الناس بالظاهرة اللغوية فإن مجالها – وهذه نتيجة غريبة بالنسبة لما يوليه الناس اهتماما– "لا يوجد مجال سواه فرّخ فيه عدد أكبر من الآراء العبثية والأحكام الماقبلية والأوهام وتمويهات الخيال " (دروس في الألسنية العامة، فردينان دي سوسير ، ص 26). ومن تلك الآراء اعتبار اللغة ظاهرة طبيعية وظيفتها تمثيل الأفكار والتعبير عنها مع ما يستبطنه ذلك من وجود تناسب بين قوانين اللغة وقوانين المادة التي تمثلها أي الأفكار (أهم المدارس اللسانية ، وزارة التربية القومية التونسية ، ص 23). يقول سوسير " تمثل اللغة في نظر بعضهم – إذا أرجعت إلى مبدئها الأصلي – **مصطلحيةً**، أي قائمة من الكلمات موافقة لعدد من الأشياء مثل:

شجرة" أرنب بقرة ..... إلخ

(دروس في الألسنية العامة، فردينان دي سوسير ، ص 109)

ويعلق على هذا التصور منتقدا له: "هذا التصور قابل للانتقاد من عدة وجوه فهو يفترض وجود أفكار جاهزة سابقة لوجود الكلمات، وهو لا يخبرنا إن كانت الكلمة ذات طبيعة صوتية أو نفسية ... وهو يجعلنا – أخيرا – نفترض أن الرابط الذي يجمع بين اسم وشيء ما هو عملية في منتهى البساطة" (نفسه ص 109 – 110) وهذه الانتقادات التي وجهها سوسير إلى التصور القديم لمفهوم اللغة – ماهيةً ووظيفةً– وجيهةٌ من جهة، وممهدة من جهة أخرى للتصور البديل الذي يطرحه هو، والذي سنتناوله الآن .

3 – تعريف اللغة :

بث سوسير – ضمن كتابه (دروس في الألسنية العامة) – تعاريف جزئية كثيرة للغة ، معظمها عرضي. وبإمكان الباحث تتبع جلها لتكوين تعريف كامل يعكس التصور السوسري للغة . وأهم تلك التعاريف جاء ضمن تمييزه لها عن الكلام و عن الملكة ، وعن اللفظ (Parole).

أ – التمييز بين اللغة والملكة:

الملكة استعداد فطري وطبيعي لدى المرء يمكنه من اكتساب اللغة ومقره الدماغ، وهي لا تتحقق لغة إلا في ظل مجموعة ومؤدى ذلك أن "استعمال اللغة رهين وجود هذه الملكة وسلامتها وما انفراد الإنسان باللغة إلا نتيجة لانفراده بهذه الملكة، ولكن هذه الملكة وحدها غير كافية لوجود اللغة ، إذ لا تتصور لغة في مستوى الإنسان الفرد، بل يقتضي قيامها وجود الفرد في مجموعة" (أهم المدارس اللسانية ، ص 26 – 27).

والخلاصة أن الملكة فردية، واللغة اجتماعية ، والثانية مشروط وجودها بوجود الأولى بينما لا يقتضي وجود الأولى وجود الثانية.

ب – التمييز بين اللغة والكلام:

- ينطلق سوسير بهذا الخصوص من اعتقاد جازم بأن " اللغة والكلام عندنا ليسا بشيء واحد، فإنما هي منه بمثابة قسم معين، وإن كان أساسيا" (دروس في الألسنية العامة، فرديناند دي سوسير ، ص 29)، الفرق الجوهري هنا يتمثل في علاقة جزء هو اللغة – وإن كان أساسيا – بكلٍّ هو الكلام.

ثم إن الكلام خليط غير قابل للتصنيف "ضمن أي قسم من أقسام الظواهر البشرية" (نفسه) إذ فيه الفيزيائي والفسيولوجي والنفسي –كما سبق – بخلاف اللغة لأنها قابلة للتصنيف. فـ "اللغة – على عكس ذلك –كلٌّ بذاته ومبدأ من مبادئ التبويب" (نفسه ص 31) إنها "شيء معين مضبوط الحدود ضمن مجموع ظواهر الكلام المتناثرة"(نفسه ص 35)، أي أنها "ذات طبيعة متجانسة" (نفسه ص 36) تمثل في مجموعها نظاما كاملا مستقلا (نفسه ص 47).

واللغة – بحكم ما سبق – قابلة للدراسة بوصفها صيغا وقواعد، فهي الموصوفة في كتب النحو والمعاجم ونحوها (نفسه ص 36).

ج – التمييز بين اللغة واللفظ:

اللغة من وجهة نظر سوسير ذات طابع اجتماعي بينما اللفظ ذو طابع فردي كما أن اللغة شيء جوهري وأساسي في حين أن اللفظ ثانوي وعرضي. يقول سوسير : "وهكذا فإننا إذ نفصل اللغة عن اللفظ نفصل في الآنِ نفسه أولًا: ما هو اجتماعي عما هو فردي ، ثانيا : ما هو جوهري عما هو ثانوي" (نفسه ص 34). أضف إلى ذلك أن اللغة "قوامها الشكل خلافا للفظ الذي قوامه المادة (الصوتية والدلالية) وهو الذي يدرك مباشرة أما اللغة فلا يمكن أن تكون مادة للملاحظة المباشرة بل يجب أن ننطلق من اللفظ بوصفه وثيقة عن اللغة" (أهم المدارس اللسانية ، ص 32 ، ونشير إلى أن د. تمام حسان استثمر تحليلات سوسير ففرق تفريقا جيدا بين اللغة والكلام. راجع اللغة العربية معناها ومبناها ، ص 32).

ذلك ما يميز اللغة عما يدانيها. وفي المحصلة فإن أبرزه أمران :

خارجي : هو اجتماعية اللغة.

داخلي: هو نظاميتها.

ولتوضيح ذلك نقترح صياغة تعريف يتوسل به الباحث إلى ماهية اللغة عند سوسير.

د – ماهية اللغة:

اللغة في عرف سوسير: **مؤسسة اجتماعية متميزة هدفها التواصل، ثم هي نظام مستقل من الدلائل اللغوية ذات الطبيعة الاعتباطية والشكلية القائمة على مبدأ التقايل.**

إن هذا التعريف المركب تبدو على مُحيّاه سِيما التعقيد ، ولكنّ الضرورة البحثية تقتضي ذلك. فلنحاولْ فيما يأتي توثيقَه وتوضيحه، ثم – بعد ذلك – بيانَ مقتضياته.

- أما كون اللغة **مؤسسة اجتماعية** فمؤداه أنها لا توجد إلا في سياق اجتماعي، أي في إطار مجموعة بشرية متجانسة لغويا.
- وأما **تميزها** فيعني أنها أخص المؤسسات الاجتماعية (دروس في الألسنية العامة، فرديناند دي سوسير ، ص 109)؛ لأن كل فرد من المجتمع عضو فيها . سجل سوسير: "اللغة مؤسسة اجتماعية ولكنها تتميز عما سواها من المؤسسات السياسية والقانونية وغيرها" (نفسه، ص 37)، وقد عُرف – قبل قليل – وجهُ التميز.

- ومفهوم **النظام** يقتضي وجود مجموعة من العناصر يقوم بينها عدد من العلاقات ، يجعلها ترتبط بعضها البعض، فإذا ما تغير عنصر منها كان لذلك التغير أثر على النظام كاملا . وإلى جانب التماسك بين عناصر النظام يتضمن النظام أيضا مفهوم العمل والحركية (أهم المدارس اللسانية ، ص 19 وما بعدها).
- **واستقلال** النظام يعني أنه لا يتأثر بغيره من مؤسسات المجتمع ولا حتى بالمجتمع نفسه ، بله الفرد.
- ومفهوم **الدليل** اللغوي عبارة عن تلاقي صورة "أكوستيكية" (وُصف هذا المصطلح بالغموض الشديد، وانتُقد بسببه سوسير. راجع دروس في الألسنية العامة، ص 362) بمتصور ذهني (وفي الفكر التقليدي : لفظ بمعنى ، أو صوت بفكر). وإذا لم أكنْ واهما فإنني أراني أوضح شيئا غامضا بما هو منه أغمض . وإلا فما معنى صورة (أكوستيكية)؟!... دعنا – لتقريب ذلك – نقلْ ، مع سوسير، : إن في الكلام دالا ومدلولا وأن ارتباطهما يؤدي إلى دليل ، فالدال هو الصورة (الأكوستيكية) وهي ليست الصوت في ذاته، بل الأثر النفسي الذي يحدثه الصوت في الذهن، وأما المدلول فهو متصور ذهني أي صورة ذهنية لشيء ما (شجرة) مثلا، وهو يختلف عن الشيء الفعلي الموجود بالخارج الذي يسمى عادة (مرجعا).

ويرى سوسير أن الدليل اللغوي هو ميدان اللغة (دروس في الألسنية العامة، فرديناند دي سوسير ، ص 109 وما بعدها) وألاّ قيمة للدال وحده ولا للمدلول وحده بل لابد من اقترانهما معا ، فهما بالنسبة للدليل كوجهي عملة واحدة.

- **والاعتباطية** معناها أن العلاقة بين الدال والمدلول غير معللة فهي ليست طبيعية ولا منطقية ولا وظيفية، بل تستمد شرعيتها من التواضع. فلا توجد علاقة بين الدال (شجرة) والمدلول (شجرة) بدليل اختلاف اللغات في تسمية مدلول (شجرة)، فكل لغة تقترح لهذا المدلول دالا خاصا بها، ففي العربية مثلا (شجرة) وفي الفرنسية (arbre) وفي الإنجليزية (tree)، وبدليل تطور الدال والمدلول كل في استقلال عن الآخر.
- ومعنى **الشكلية** أن اللغة ليست الأصوات المادية المنطوقة ولا المتصورات ذاتها وإنما هي الشكل الذي تنتظم حسبه الأصوات والمتصورات. ومن هنا نادى سوسير بأن اللغة شكل وليست مادة؛ إذ الدليل والمدلول قيمتان عقليتان مجردتان وكذلك الدليل اللغوي.
- ومبدأ **التقابل** يعني أن الدلائل اللغوية لا تأخذ قيمتها في النظام إلا من خلال ما يميزها عن الدلائل الأخرى. فلا نعرف الدليل تعريفا مطلقا وإنما بالنظر إلا ما يميزه عن غيره في النظام (نفسه).

ولئن كانت مكونات التعريف قد أضيئت فإن مقتضياته جديرة بأن تضاء.

4: **مقتضيات التعريف:**

1 – اقتضى التعريف السابق من حيث اعتبار اللغة مؤسسةً اجتماعيةً تواضعية نفيَ كونها ظاهرة طبيعية، كما اقتضى عدُّها نظاما مستقلا عدمَ خضوعها لمعطيات خارجة عنها كنظام الأشياء في الوجود ونظام الأفكار في المنطق.

2 – بعدّ سوسير اللغة نظاما مستقلا عن قائله وعن المجتمع الذي ينتمي إليه يكون قد قضى – بوجه ما- على الإنسان وعلى المجتمع معا . وهكذا "فإذا كان الوجوديون قد تخلصوا من الله فقد نجح سوسير في التخلص من الإنسان ... [حيث] جعل المعنى حصيلة مجموعة من السياقات .... وفي ظل هذا التصور أصبح الإنسان إفرازا لغويا بدلا منه صانعا للغة" (www.alhawali.com) وكل ذلك إنما جاء نتيجة لنظرته إلى اللغة وتفحصه لها لدرجة "يمكن القول [معها] ..... إن جميع ما لسوسير من تشييد نظري يرتكز على تعريفه موضوع اللغة التي تقتضي دراستها نفيا مزدوجا للتاريخ وللواقع" (مبادئ في قضايا اللسانيات المعاصرة ، ص 25).

3 – اقتضت الاعتباطية في اللغة تفسير صعوبة الترجمة، وعسر تعلم لغة أجنبية جديدة؛ ذلك أن كل لغة لها أسلوبها الخاص والمميز والعشوائي أيضا في تبويب العالم، ولا أدل على ذلك من اختلاف اللغات في تقطيع الألوان (بعض اللغات تقطع الألوان إلى أبيض وأسود فقط).

وبالنظر إلى ما سطر أعلاه يتضح بجلاء مدى جرأة سوسير بغض النظر عن اتفاقك أو اختلافك معه في الرأي، فأين منه تشومسكي ؟ ذلك ما سنناقشه قريبا.

القسم الثاني : المفهوم التشومسكي للغة:

1- التمييز بين المفهوم البدهي للغة والمداخل العلمية:

كمدخل إلى معالجة مفهوم اللغة يميز تشومسكي بين المفهوم البدهي للغة وما سماها (المداخل العلمية) (وسماها أيضا مداخل عصرية، وترجمت بمفاهيم تقنوية. انظر المعرفة اللغوية طبيعتها وأصولها واستخدامها ، تشومسكي ، ترجمة: محمد فتيح، ص73) معتبرا أن الأول غير محايد إذ ينحو – غالبا- منحى سياسيا اجتماعيا أو معياريا، ومن صور ذلك إسناد لغة مشتركة بين مجتمعين إلى أحدهما دون الآخر. وإذا كان "للمفهوم البدهي عن اللغة، في المقام الأول، بعد سياسي اجتماعي حاسم " (نفسه ص 73) فإن المداخل العلمية بعكس ذلك؛ إذ "يؤدي الافتراض نفسه؛ بصورة أو بأخرى؛ ظاهريا أو ضمنيا، دوره في التعرف على مادة البحث. وليست هنالك محاولة ما لتصور أو صياغة أي مفهوم يرتبط بالوجوه السياسية الاجتماعية أو الغائية المعيارية للاستخدام غير المنهجي لمصطلح اللغة" (نفسه ص 74) ولكن هل يضمن الوصف المحايد للمداخل العلمية الحماية من نقد تشومسكي ؟

2 – نقد المفهومين: البدهي والعلمي للغة:

بالرغم من أن المداخل العلمية – بما فيها المدخل السوسري- محايدة إلا أنها – من وجهة نظر تشومسكي- لا تتسم بالكفاية فيما يتعلق بنظرتها إلى اللغة ، ذلك أنها غيبت البعد التركيبي – على مستوى التطبيق- أو باختصار (الجملة) ، يقول تشومسكي : البنيويون والوصفيون والسلوكيون وغيرهم من ذوي المداخل المعاصرة اتجهوا إلى "تصور اللغة كمجموعة من الأحداث أوالمنطوقات أو الأشكال اللغوية (كالكلمات والجمل) يزاوج بينها وبين المعنى .... ففي البنيوية السوسرية أخذت اللغة (langue) على أنها نظام من الأصوات يرتبط به نظام من الأفكار . وترك مفهوم الجملة في مكان أشبه بزوايا النسيان" (نفسه ص 77 – 87) وهذا كاف من وجهة نظره لتغيير مسار البحث اللغوي من النظر في اللغة إلى النظر في معرفة اللغة.

3 – التحول بالبحث اللغوي من اللغة إلى معرفة اللغة:

لقد آثرنا – يقول تشومسكي – التحول بالبحث اللغوي من اللغة إلى معرفة اللغة (وربما سماها نظام المعرفة ، أو المعرفة باللغة) فالنحو التحويلي الذي نتبناه حول مركز الاهتمام" من السلوك الفعلي أو الممكن .... إلى دراسة نظام المعرفة التي تكمن وراء استخدام وفهم اللغة" (المعرفة اللغوية ، ص 83).

وهكذا لم يفتأ الرجل يلح على ضرورة "التحدث عن المعرفة باللغة بوصفها القدرة على التكلم والفهم" (نفسه ص 65)؛ لهذا لم يكد يعرف اللغة بالرغم من أنها "من مصطلحاته الأساسية" (علم اللغة في القرن العشرين، جورج مونان، ترجمة: د.نجيب غزاوي، ص 219)، بل كان يشعر نحوها ببعض الحساسية (راجع المعرفة اللغوية ، ص 90)، مؤثرا التحدث –كما سبق- عن معرفة اللغة. فما المقصود بمعرفة اللغة؟

وللإجابة عن ذلك"ينبغي –كما يبدو – أن نفكر في معرفة اللغة بوصفها حالة معينة للعقل/الدماغ، عنصرا ثابتا نسبيا ضمن الحالات العقلية العابرة وأن نفكر فيها أيضا كقدرة من قدرات العقل يمكن تمييزها.. هي قدرة اللغة بخصائصها وبنيتها ونظامها التي هي وحدة من وحدات العقل" (نفسه ص 68).

جليّ من النصوص أعلاه:

– أن تشومسكي يرادف بين اللغة ومعرفتها وبين المعرفة والقدرة .
– أنه يرى في المعرفة اللغوية قدرة باطنية مودعة في الدماغ. وهذا الرأي الأخير يستبطن التمييز في الظاهرة الكلامية بين مستويين: مستوى عميق، جدير بالاهتمام ، ومستوى سطحي ، من الدرجة الثانية. وهي المسألة التي نحن آمّوها بالبحث الآن.

4 – التمييز في الكيان اللغوي بين القدرة والإنجاز:

يميز تشومسكي –كما مر معك قبل قليل– بين مستويين من مستويات الظاهرة الكلامية هما مستوى الكلام المنجز وقد سماه بـ (الإنجاز) ومستوى الكلام الضمني وهو الذي يتحكم في الكلام المنجز. وسماه (الكفاءة) (مصطلحات القدرة والكفاءة والكفاية مترادفات ، وينتمي إلى مدلولها مصطلحا اللغة المبنية داخليا والبنية العميقة كذلك فإن مصطلحي الإنجاز والأداء مترادفان، ويعبر عن المدلول الذي يتضمنانه باللغة المجسدة وبالبناء الاصطناعي) فلنقترب من ذين المفهومين عسى أن نقترب من المفهوم التشومسكي للغة

أ – مفهوم القدرة (الكفاءة):

القدرة هي "المعرفة المثالية لمستخدم اللغة بقواعد لغته" (دراسات في علم اللغة الوصفي والتاريخي والمقارن ، د. صلاح الدين صالح حسنين، ص 37) أي "القواعد التي يتبعها ابن اللغة في إنتاج الجمل وفهمها. وهذه القواعد ... تفسر أمثلة الأداء الممكنة كلها" (تشومسكي فكره اللغوي وآراء النقاد فيه، ص 66 – 67) و إن شئت فقل: إن "تعبير الكفاءة اللغوي التقني يشير إلى مقدرة المتكلم المستمع المثالي على إقران الصوت بالمعنى بالتوافق مع قواعد لغته" (الألسنية (علم اللغة الحديث)، ميشال زكريا ، ص 260) فهي إذا معرفة ضمنية تثوي خلف اللغة المنجزة، ويقابلها الإنجاز. فما هو؟

ب – مفهوم الإنجاز (الأداء):

يشير هذا المصطلح " إلى البراعة التي يستعمل بها الفرد قدرته اللغوية في الإنتاج الفعلي للجمل وفهمها" (تشومسكي فكره اللغوي وآراء النقاد فيه، ص 66) إنه التحقق الفعلي للكفاءة، ويتم عن طريق النطق. وباختصار فهو يشير إلى الممارسة الكلامية. والسؤال الحريّ بالإثارة هنا هو: أيهما يمثل اللغة ويتعين أن يتوجه إليه بالدرس والتحليل: القدرة (الكفاءة) أم الإنجاز (الأداء) ؟ والجواب التقليدي – في الدرس التحويلي عموما؛ و عند تشومسكي خصوصا– انتقاء الأول؛ ذلك أن ميدان اللغة ليس "الأشكال اللغوية كما هي منطوقة بالفعل [بل] القدرة الضمنية التي تفسر هذه الأشكال" (مباحث في اللسانيات، أحمد حساني، ص 118) فنحن لا ينبغي أن نعتبر ميدان اللغة "وصفا لما كان قد قاله المتكلم وإنما شرح وتعليل للعمليات الذهنية التي من خلالها [يستطيع] الإنسان أن يتكلم بجمل جديدة "(نفسه).

وفي خضم تلك التحليلات لا يجد المرء مندوحة عن التساؤل: ما طبيعة اللغة عند تشومسكي ؟

ج – ماهية اللغة:

الناظر – بعين التأمل في تنظيرات تشومسكي – يدرك أن اللغة عنده :**حالة عقلية، ونسَق من القواعد مبرمج في الدماغ، يُنتج – وبشكل آلي – عددا لا نهائيا من الجمل. هذا الجهاز يولد مع الطفل، وينمو بنموه.**

ولنعد إلى هذا التعريف توثيقا وتعليقا. فنقول: قرر تشومسكي " أن اللغة عملية عقلية معقدة" (أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، ص 140) أي أنها "عنصر ما من عناصر عقل الشخص الذي يعرف اللغة" (المعرفة اللغوية ، ص 80) فهي إذا تمثل "خاصية من خواص عقل الفرد وتتطور حسب نموه" (دراسات في علم اللغة الوصفي والتاريخي والمقارن ، د. صلاح الدين صالح حسنين، ص 37)، كما قرر أن اكتساب اللغة الأولى "يعتمد على مكون معين موجود في العقل أو المخ على نحو معين، وهو جهاز اكتساب اللغة (L.A.D)" (موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، ر. هـ . روبنز ، ترجمة : أحمد عوض ، ص 345) وحينئذ تكون اللغة نفسها "عبارة عن مفتاح للفهم الجزئي للعقل أو المخ الإنساني" (نفسه). وبما أن اللغة حالة عقلية فهي ذات طبيعة تجريدية رياضية، ولهذا يمكن وصفها بأنها نسق من القواعد النحوية . أو نعْتها بأنها آلة منتجة بشكل منتظم ومتجدد.

ومن هنا ساغ لباحث أن يسجل أن تشومسكي يعتبر "اللغة عبارة عن مكنة أو آلة مولِّدة ذاتِ أدوات محددة قادرة على توليد ما لا نهاية له من الرموز اللغوية ذات الطابع الحسابي الرياضي" (قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، ص 14) أو يرى فيها "ظاهرة فيزيائية رياضية آلية بيولوجية تعمل داخل الدماغ البشري" (دراسات لسانية تطبيقية، د. مازن الوعر، ص 32).

ولم يتم لتشومسكي كل ذلك لولا أنه ربط بين اللغة والدماغ فاكتست تصوراته – ولو من الناحية النظرية على الأقل– الطابع العلمي والواقعي. وهي النقطة التي سنناقشها الآن .

د– مسوغات التحول:

يرى تشومسكي أن اللغة المنجزة ليست من العالم الحقيقي بل إنها أشياء مصطنعة، بينما المعرفة اللغوية حقيقة علمية واقعية لارتباطها بالدماغ.

فالمسوغ الأول إذا لهذا التحول أنه " تحول صوب دراسة موضوع مادي بدلا من بنية اصطناعية" (المعرفة اللغوية ، ص 89 .) وهي فكرة تعود في أصلها إلى ديكارت (– راجع اللسانيات واللغة العربية ، ص 46).

والمسوغ الثاني أننا – بهذا التحول – نبتعد عن المفهوم البدهي للغة وعن مساوئ المداخل المعاصرة.

قد يقتنع المرء بمثل هذه الحجج، وقد لا يقتنع، إلا أنها – بالإضافة إلى ما سبقها من تحليلات – موغلة في التجريد، وتشير إلى عمق فكر الرجل ونفاذ بصيرته. فلئن بدا سلفه سوسير جريئا .كما سبق – فإنه هو يبدو عميقا. وسيتجلى ذلك أكثر من خلال القسم الثالث الذي سنحاول فيه المقارنة بينهما.

القسم الثالث : أوجه الاتفاق والاختلاف بين الرجلين:

تمهيد:

ليست المقارنة أمرا هينا، ولاسيما إذا تعلق الأمر بالمجالات التنظيرية، ومع ذلك لابد مما ليس منه بد.
ونشير هنا إلى أننا سنقتصر على ما اشتدت صلته بالبحث (مفهوم اللغة) واضعين في الاعتبار الصوى والمعالم الكبرى دون غيرها، بادئين بأوجه الاتفاق. فما هي؟

أوجه الاتفاق بين الرجلين:

أ – محاولة تحديد المفهوم العلمي للغة كضرورة منهجية. صرّح بذلك سوسير تصريحا، وأشار إليه تشومسكي إشارة.
ب – ضرورة التمييز – في الظاهرة اللغوية، من حيث المبدأ – بين مستويين: ضمني ومنجز لدرجة صرح معها تشومسكي بأن تفريقه بين القدرة والإنجاز يقترب من تمييز سوسير بين اللغة والكلام (المعرفة اللغوية ، ص 75) يقول تشومسكي "إن التمييز الذي أشير إليه هنا يرتبط بالتمييز بين اللغة والكلام الذي وضعه دي سوسير إلا أن من الضروري أن "نرفض مفهوم اللغة من حيث هي لائحة منتظمة من العناصر، وأن نعود بالمقابل إلى مفهموم همبولد حول الكفاية اللغوية الضمنية كتنظيم توليدي").
ج – انتقاد التصور اللغوي المباين . فقد انتقد سوسير التصور القديم للغة ، وانتقد تشومسكي ما سماها المداخل العصرية أو العلمية للغة ممثلة في المعالجات البنيوية والوصفية والسلوكية .
د – اعتبار اللغة جهازا نحويا موجودا بالقوة في الدماغ ، بغض النظر عن الدماغ الموجود فيه. ألح على ذلك تشومسكي، وصرح به مرة سوسير: "اللغة ... كنز مودع عن طريق ممارسة اللفظ لدى جماعة من الأشخاص المنتمين إلى مجموعة واحدة وهو نظام نحوي يوجد بالقوة في كل دماغ أو – على نحو أدق – في أدمغة مجموعة من الأفراد" (دروس في الألسنية العامة، فرديناند دي سوسير ، ص 34).
هـ – استقلال اللغة عما سواها باعتبارها بنية منغلقة على نفسها . وإذا كان سوسير هو من اشتهر بذلك فإن تشومسكي كان في صميم أعماله التحويلية بنيويا في نظرته إلى اللغة (دراسات لسانية تطبيقية، د. مازن الوعر، ص 32). فقد انتقد السلوكيين في اعتبارهم اللغة مجموعة من المثيرات الخارجية والاستجابات ... مؤكدا أن اللغة متحررة من كل المثيرات الخارجية ومتماسكة وملائمة لكل الظروف . ذاك من أهم ما يتفق عليه الرجلان. فلنر أبرز ما يختلفان فيه .

أوجه الاختلاف بينهما:

أ – اللغة في عرف سوسير ظاهرة اجتماعية ، وهي عند تشومسكي خصيصة عقلية من خصائص الفرد.
ب – ينظر سوسير إلى اللغة من الخارج ، وتشومسكي ينظر إليها من الداخل.
ج – سوسير ينطلق من الكلام المنجز ليجعل منه أساسا للغة كنظام ، أي أنه ينطلق من الجزء نحو الكل، بينما ينطلق تشومسكي من المعرفة الباطنية أي من النظام ليجعل منه أساسا لدراسة الكلام المنجز، فهو في تناوله للغة ينطلق من الكل نحو الجزء.
د – المعيار اللغوي في الحكم على الملفوظات في التنظير السوسري هو الجماعة أما عند تشومسكي فهو حدس المتكلم/السامع المثالي.
هـ – امتاز تشومسكي بوصف اللغة بأنها إبداعية متجددة لا نهائية، وألح على ذلك .
و – تميز سوسير بوضوح أكثر في التحليل وضبط أدق للمصطلحات خلافا لتشومسكي الذي اتسم بغموض المصطلحات وعدم استقرار الرأي (راجع: علم اللغة في القرن العشرين ص 226 ، و تشومسكي : جون ليونز ،ترجمة: محمد زياد كبة ، ص 9). ولعل طبيعة المادة المعالجة وصعوبتها ألجأته إلى ذلك كما سيتبين في الخاتمة.

خاتمة (بعض نتائج البحث):

بانَ مما سبق :

1 – أن اللغة مفهوم عصي على التحديد ، وأن كثيرا من تصورات الأقدمين حولها أوهام وخيالات (على حد زعم سوسير)، وكثيرا من تنظيرات المحدثين (من وجهة نظر تشومسكي) تتسم بعدم الكفاية.

2 – أن اللغة تعاقد اعتباطي بين الأصوات والمتصورات.

3 – أن التناول العلمي للغة – بمعناها العام– يقتضي التمييز فيها بين مستويين: ضمني ومنجز.

4 – ان من أبرز سمات اللغة أنها:

أ – ذات طبيعة اعتباطية (كما مر).

ب – مؤسسة اجتماعية.

ج – تمثل حالة من حالات العقل.

د – نظام مستقل من الرموز والإشارات.

هـ – ذات طابع تجريدي وشكلي .

و – تتسم بالإبداع واللانهائية.

ز – أن عملها في الدماغ يشبه عمل الآلة.

قائمة المصادر والمراجع:

1 أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، د. نايف خرما، عالم المعرفة، 1398هـ/1978م.

2 الألسنية (علم اللغة الحديث)، ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية، بيروت، ط2، 1985.

3 أهم المدارس اللسانية ، وزارة التربية القومية التونسية، تونس، 1986م.

4 تشومسكي : جون ليونز ،ترجمة: محمد زياد كبة، النادي الأدبي بالرياض،ط1، 1987م

5 تشومسكي فكره اللغوي وآراء النقاد فيه: د. صبري إبراهيم السيد، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989 م .

6 التفكير اللغوي بين القديم والجديد، د. كمال بشر، مكتبة الشباب، مصر، د. ت

7 الخصائص ، ابن جني (أبو الفتح)، تح: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.

8 دراسات في علم اللغة الوصفي والتاريخي والمقارن ، د. صلاح الدين صالح حسنين، دار العلوم، الرياض، ط1 ، 1984م.

9 دراسات لسانية تطبيقية، د. مازن الوعر، دار طلاس ، دمشق ، د.ت .

10 دروس في الألسنية العامة، فردينان دي سوسير، تر: صالح القرمادي وآخرين، الدار العربية للكتاب، 1985م.

11 علم اللغة في القرن العشرين، جورج مونان، ترجمة: د.نجيب غزاوي، وزارة التعليم العالي السورية، د.ت .

12 فردينان دي سوسير : تأصيل علم اللغة الحديث وعلم العلامات، جوناثان كيللر، تر: محمد حمدي عبد الغني، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000م.

13 قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، د.مازن الوعر، دار طلاس، دمشق، ط1، 1988م.

14 اللسانيات وأسسها المعرفية، د. عبد السلام المسدِّي، الدار التونسية للنشر، .... تونس 1986م.

15 اللسانيات واللغة العربية ، د. عبد القادر الفاسي الفهري، دار توبقال، الدار البيضاء، ط1، 1985م.

16 اللغة العربية معناعا ومبناها، د. تمام حسان ، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1994م.

17 مباحث في اللسانيات، أحمد حساني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999م.

18 مبادئ في قضايا اللسانيات المعاصرة ، جماعة، تر: المنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984م .

19 المسار الجديد في علم اللغة العام ، د. وليد محمد مراد، مطبعة الكواكب، دمشق، 1986م.

20 مصطلحات النقد العربي لدى الشعراء الجاهليين والإسلاميين .. قضايا ونماذج، د. الشاهد البوشيخي، دار القلم ، 1993.

21 المعرفة اللغوية طبيعتها وأصولها واستخدامها، ن . تشومسكي ، ترجمة: محمد فتيح، دار الفكر العربي، القاهرة، 1993م.

22 موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، ر. هـ . روبنز ، ترجمة : أحمد عوض، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ، 1997م.

23 www.alhawali.com